

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة السابعة - العدد الخامس والعشرون - ربيع ١٣٩٦ش / آذار ٢٠١٧م

صص ٩١ - ٧٥

## الحقيقة المحمدية في مدائح الخاقاني الشرواني النبوية

حميدرضا حيدري\*

إبراهيم خليلي (الكاتب المسؤول)\*\*

### الملخص

المدائح النبوية من الأعراض الشعرية التي تكاد تشترك مضامينها بين جميع الشعراء ومن أهم المضامين التي تناوها الشعراء في المدائح النبوية يمكن التطرق إلى معجزات النبي (ص) والتوسل به ومكارم أخلاقه. أما الموضوع الرئيس والذي يشكل حجر الأساس في المدائح النبوية هو "الحقيقة المحمدية" المشهورة بين العرفاء والأوساط الصوفية وهي مما استقاه ابن عربي من حديث النبي (ص) "كُنْتُ نَبِيًّا وَأَدُمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطَّيْنِ". ومن خلال هذه الحقيقة يتجلى كمال الكائنات في الإنسان الكامل الذي يتمثل في شخصية الرسول الأكرم (ص). ومن أسس هذه الحقيقة يمكن الإشارة إلى:

١. خلق نور رسول الإسلام (ص) قبل خلق الكائنات ونبوته قبل أن يُخلق آدم (ع).
٢. تفضيله على المخلوقات وعلى جميع الأنبياء.
٣. أنه هو الغرض الأول لخلق العالم. وبهذا الصدد لقد حاول الباحثان تسليط الضوء على المدائح النبوية لدى الشاعر الفارسي الخاقاني الشرواني واستكشاف الحقيقة المحمدية فيها حيث تبين أن الخاقاني من القائلين بالحقيقة المحمدية.

الكلمات الدلالية: المدائح النبوية، الحقيقة المحمدية، تفضيل النبي، الخاقاني.

\*. أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة العلامة الطباطبائي، طهران، إيران  
farsiarabi2013@yahoo.com

\*\* طالب مرحلة الماجستير في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة العلامة الطباطبائي، طهران، إيران  
eb.khalili55@gmail.com

تاريخ القبول: ١٣٩٥/٩/٢٥ش

تاريخ الاستلام: ١٣٩٥/٤/٩ش

## المقدمة

المديح النبوي أحد الأغراض الشعريّة التي تطرق إليها العديد من الشعراء في مختلف الآداب الإسلامية حيث وصفوا محاسن صفات النبي(ص)، واستعرضوا وقائع حياته وتناولوا معجزاته ومدحوا أهل بيته وأشادوا بنبوته وقيادته للأمة. فالمدائح النبوية تجمع في طياتها بين معالم الشخصية الإنسانية المثلى التي تتجسد في نبي الإسلام(ص) وما قال الله سبحانه وتعالى عن صفات نبيه(ص) في كتابه العزيز. لقد لفتت شخصية النبي(ص) اهتمام الشعراء المسلمين من مختلف المذاهب والطوائف وقد برز اهتمام الشعراء بشخصية رسول الله(ص) وتفضيله على جميع الكائنات. شهدت المدائح النبوية في العصور الأدبية جزءاً ومداداً إلا أنها انتشرت انتشاراً واسعاً في العصر المملوكي ولعل سبب ذلك يعود إلى نشوب الحروب الصليبية التي كانت لها روح دينية متعصبة ومعارضة للدين الإسلامي من جهة والزحف المغولي الغاشم الذي جاء لطمس المعالم الحضارية من جهة أخرى وما أصيب به المجتمع المملوكي من التدهور السياسي والكوارث الطبيعية وانغماس المجتمع في اللهو، الأمر الذي أثر في انتشار المديح النبوي كنتيجة طبيعية لمقاومة المظاهر المخالفة للدين والمروجة للهو والمجون حيث استخدم فئات من الشعراء شعرهم لتبجيل شخصية نبي الإسلام(ص) والثناء عليه وتفضيله على الخلق ومدح خصاله الحميدة. ومن أبرز الشعراء الذين اهتموا بالمديح النبوي منذ بزوغ فجر الإسلام حسان بن ثابت الأنصاري وكعب بن زهير والكميت الأسدي وصفى الدين الحلبي والبوصيري. وأما الشعراء الفرس فهم كذلك جندوا طاقاتهم الشعرية للذود عن حياض الإسلام من خلال شعرهم الديني بما في ذلك المدائح النبوية وذلك منذ عصر الرودكي والكسائي وحتى القرون المتأخرة بحيث نرى اهتمام الشعراء الإيرانيين بهذا الفن بارزاً مثلما نرى في أدب مولانا والطار النيشابوري وسنائي والحاقاني ونظامي كنجوي وملا محسن فيض الكاشاني.

وقد حاول الشعراء أن يتناولوا في مدائحهم النبوية كل ما يرتبط بنبي الإسلام(ص) من معجزاته وميزاته الخلقية والخلقية الحسنة وما يتّ إلى أهل بيته(ع) بصلة. وأما الموضوع الرئيس في هذه المدائح فهو ما اشتهر بالحقيقة المحمدية حيث سيجرى الحديث

عنها لاحقاً.

### خلفية البحث

فيما يتعلق بسوابق البحث تجدر الإشارة أن الباحثين قاما بالبحث حول كتب ومقالات عن دراسة الحقيقة المحمدية في شعر الخاقاني إلا أنهما لم يعثرا على بحث مستقل ودراسة متفردة بالموضوع إلا أن هناك بحثاً موجزاً في طيات كتاب «المدائح النبويّ في شعر حسان العرب وحسان العجم» من منشورات يار دانش وهو يحمل عنوان «الحقيقة المحمدية في شعر الخاقاني» لتورج زينيوند ولا يفوتنا هنا الإشارة إلى أن الحقيقة المحمدية في حد ذاتها كانت موضع اهتمام الكتاب والمؤلفين كما أن هناك كتاباً نشرته مؤسسة "تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني" تناولت فيه فاطمة طباطبائي الحقيقة المحمدية حسب رؤى مولانا وملا محسن فيض الكاشاني، ومقال آخر وهو «سيميای پیامبر اعظم در ديوان خاقانی شروانی» لجهانغير صفري وروشنك رضائي طبع في مجلة «پژوهش زبان وادبيات فارسی» المحكمة حيث لم يفرد الكاتبان بحثاً حول الحقيقة المحمدية.

### أسئلة البحث

١. ما هي الحقيقة المحمدية وهل احتلت حيزاً ملحوظاً في البحوث الأدبية؟
٢. هل الخاقاني الشرواني من القائلين بالحقيقة المحمدية؟
٣. كيف استخدم الخاقاني الحقيقة المحمدية في شعره؟

### فرضيات البحث

١. الحقيقة المحمدية وقعت موقع اهتمام الشعراء واحتلت مكانة مرموقة في شعر عدد من شعراء المدائح النبوية.
٢. الخاقاني كان من القائلين بالحقيقة المحمدية وشعره خير دليل على ذلك.
٣. قد تناول الخاقاني في شعره أهم الموضوعات التي تدور في فلك الحقيقة المحمدية. وأهم المصادر التي تم الاعتماد عليها عبارة عن "ديوان" الشاعر و"مثنوى تحفة

العراقيين" و"شرح ديوان الخاقاني" لمحمد رضا برزگر خالقي وأربعة من التفاسير المهمة للقرآن الكريم. تقوم هذه الدراسة على المنهج التحليلي والوصفي.

### حياة الخاقاني وشعره

«ولد أفضل الدين بديل بن علي الخاقاني الشرواني في شروان القريبة من مدينة باكو الحالية عام ٥٢٠ هـ وهي تقع في شمالي آذربيجان الإيرانية والتي يكون اسمها التاريخي "أران". كان أبوه نجاراً فقيراً يسمى علياً وكانت أمه من المسيحيين النساطرة الذين أعلنوا إسلامهم.» (صفا، ١٣٧٢ش، ج ٢: ٧٧٧)

«وعلى الرغم من حياة والديه الفقيرة فقد حظي الخاقاني بدعم وحماية وتشجيع من قبل عمه كافي الدين عمر بن عثمان الذي كان حكيماً وطيباً وفيلسوفاً. وبما أن عمه أدرك مواهبه منذ طفولته فسعى في تربيته وحين سمع منه قصائده في مدح النبي الأعظم (ص) وغيرها من القصائد قارنه مع حسان بن ثابت الأنصاري ولقبه بـ"حسان العجم". وبما أن الخاقاني قد أعجب بهذا اللقب فقد ذكره في أشعاره مراراً.» (استعلامي، ١٣٨٧ش: ١٦)

«توفي الخاقاني عام ٥٧٥ في تبريز وهو في الخامس والسبعين من عمره في حياة زاخرة بالألم والمعاناة والتشكي ودفن جثمانه في مقبرة الشعراء.» (سجادي، ١٣٧٠ش: ١٤)

انتشرت النزعة الصوفية في إيران خلال هذا العصر إثر ما مورس ضد العلماء والأدباء من تضايق وتشدد بحيث مال العديد من الشعراء إلى هذه النزعة كما حدث ذلك في الأدب العربي.

لقد تناول الخاقاني الشرواني في أشعاره مدح النبي الأعظم (ص) كما صور شخصيته وسيرته ومدح الأماكن المقدسة لاسيما مكة والمدينة.

للخاقاني ثلاث عشرة قصيدة في نعت النبي (ص) ومدحه وأهمها: منظر الطير، حرز الحجاز، كنز الركاز، تحفة الحرمين وتفاحة الثقلين فضلاً عن مدائحه النبوية في مثنوى تحفة العراقيين.

## الحقيقة المحمدية

مصطلح "الحقيقة المحمدية" مما يستخدم لدى العرفاء بشأن النبي (ص) حيث قالوا: «قد ظهرت جميع العوالم من هذه الحقيقة وقيل إنها حقيقة الحقائق.» (كاشي، ١٣٧٦ش: ١٣١) «وقد جاء في معتقدات الصوفية والعرفاء بأن هذه الحقيقة يظهر في الإنسان الكامل. والنبي والرسول والولي من مظاهر هذه الحقيقة في العالم السفلي وأكمل مظهر لهذه الحقيقة في العالم هو النبي الأكرم(ص).» (المصدر نفسه: ٣٥٢)

«لقد أصبحت هذه الحقيقة من مفردات العرفان الإسلامي، ويعنون بذلك أن الحقيقة المحمدية تمثل التعيين الأول للأعيان الثابتة والتي تقف على رأس جميع الأعيان الثابتة» والتي تحققت من خلال التجلي الإلهي الأكمل. ومن تلك الحقيقة تُفاض على كافة العوالم الأخرى. ويعتقد العرفاء بأن الحقيقة المحمدية تتبلور في الإنسان الكامل وأن النبي والرسول والولي يعتبر من مظاهر تلك الحقيقة في العالم وأنها تجلّت بأسمى صورها وأحسنها في شخصية الرسول الأكرم(ص).» (موقع موسوعة المعارف الإسلامية الإلكترونية، الحقيقة المحمدية)

وبهذا الشأن لا تُعتبر الحقيقة المحمدية عقيدة صوفية بحتة، ولا تنحصر هذه الحقيقة في الأوساط الصوفية وفي تعاريف معينة كما يقول الدكتور زكي مبارك: «هي تعني أن النبي هو أول تعين للذات الأحادية قبل كل تعين، فظهر به ما لا نهاية له من التعيينات.» (مبارك، ٢٠١٢م: ٢٥٩) وأيضاً يجب أن لا نحصر كل العقائد المتعلقة بهذه الحقيقة في الغلو، كما حدده الدكتور زكي مبارك قائلاً: «وهذا الغلو لا يُفهم إلا إذا عرفنا أنه يرجع إلى أصل من أصول التصوف، وهو القول بالحقيقة المحمدية.» (المصدر نفسه: ٢٥٨) وعلى أي حال قد تشكّلت هذه الحقيقة من عدّة نقاط فيما يخص شخصيّة النبي(ص) منها، الأول: يعتقد المعترفون بهذه الحقيقة أن النبي(ص) خلق نوراً قبل أن يخلق الله الكائنات وكان نبياً وآدم بين الماء والطين. وهذا على أساس ما روى عن النبي من الأحاديث المشهورة المتواترة، كحديث يخاطب فيه جابر بن عبد الله الأنصاري: «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر.» (المازندراني، ١٣٧٦ق: ٢١٤) أو «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين.» (المصدر نفسه: ٢٢٥)، الثاني: هو أن النبي(ص) كان الغرض الأول لخلق هذا

العالم بالاستناد إلى رواية «لولاك لما خلقت الأفلاك.» (المصدر نفسه: ٢١٨)، الثالث: من أصول هذه العقيدة، هو أن النبي (ص) أفضل الخلق بل أفضل الأنبياء (ع).

### الحقيقة المحمدية في شعر الخاقاني

(أ) خلق نور النبي ونبوته قبل خلق الكائنات:

أما بالنسبة إلى خلق نور النبي (ص) قبل أن تخلق الكائنات، وبالنسبة إلى نبوته قبل أن يخلق آدم (ع)، فيستشهد الراضون لهذه العقيدة بالآيات القرآنية كقوله تعالى: ﴿لَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىَّ﴾ (الكهف: ١١٠) ويعتقدون بأن النبي (ص) مخلوق كبقية أبناء البشر يتولد ويعيش ثم يموت. ولكن هذا الرأي يرتبط بالبعد المادّي والعنصرى للإنسان أن صفة "البشرية" هي التي تتعلق بالهيئة الظاهرة ولهذا لا شك في أن النبي في صفة البشرية كبقية الناس يتولد ويأكل ويمشي ويموت. وأما الذي يرتبط بهذا الاعتقاد في قضية الحقيقة المحمدية يختلف عن نشأته العنصرية بل يرتبط بحقيقته الأزلية عند ربّه. نكتفى هنا في تبين هذه القضية ببعض ماورد من الأحاديث والتفاسير؛ وقد خاطب الله أهل الكتاب قائلاً: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (المائدة: ١٥) وقد قيل في تفسير هذه الآية: «من المحتمل أن يكون المراد من النور هو النبي (ص)، وقد عدّه الله تعالى نوراً في قوله: ﴿وَسِرَاجاً مُنِيرًا﴾» (الطباطبائي، ١٩٧١م، ج ٤: ٣٢٧)

وقال الطبري في تفسيره: يقول جل ثناؤه للذين خاطبهم من أهل الكتاب: «قد جاءكم يا أهل التوراة والإنجيل من الله نور، يعنى بالنور محمداً (ص) الذي أنار الله به الحق وأظهر به الإسلام، ومحق به الشرك، فهو نور لمن استنار به يبين الحق، ومن إنارته الحق تبيّنه لليهود كثيراً مما كانوا يخفون من الكتاب.» (الطبري، ١٤١٢ق: ١٦١)

قد قال الرازي: «و فيه أقوال، الأول: أن المراد بالنور محمد، وبالكتاب القرآن، والثاني: أن المراد بالنور الإسلام وبالكتاب القرآن، الثالث: النور والكتاب هو القرآن وهذا ضعيف، لأنّ العطف يوجب المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه وتسميته محمد والإسلام و القرآن بالنور ظاهرة، لأن النور الظاهر هو الذى يتقوى به البصر على إدراك الأشياء الظاهرة، والنور الباطن هو الذى تتقوى به البصيرة على إدراك

الحقائق والمعقولات.» (الرازي، ١٤١٠ق: ١٨٩ و ١٩٠) ولكن البعض يفسرون النور بالنور الظاهر حيثقال بعض الشعراء في أشعارهم بأن النبي(ص) كان نوراً ليس له ظلّ. وعليه سنشير بهذا الشأن إلى نماذج من شعر الخاقاني.

وفي تفسير الآية القرآنية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران: ٨١) قد ورد عن الإمام علي(ع): «إن الله أخذ الميثاق على الأنبياء قبل نبينا أن يُخبروا أمهم بمبعثه ونعته ويبشروهم ويأمرهم بتصديقه.» وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب(ع)، قال: لم يبعث الله آدم نبياً فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد لئن بعث وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه، ويأمر فيأخذ العهد على قومه ثم تلا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ...﴾ (الطباطبائي، ١٩٧١م، ج: ٣، ٢٤٤) ويؤكد صاحب تفسير الميزان على أن الروايتين تفسران الآية بمجموع ما يدل عليه اللفظ والسياق كما مرّ. وقد روى عن الإمام علي(ع) «بعث الله محمداً لإنجاز عدته، وإتمام نبوته، مأخوذاً على النبيين ميثاقه.» (نهج البلاغة: ٣٨) وأيضاً يقول الإمام(ع) مشيراً إلى حقيقته النورية وتقدم حقيقته على الأنبياء: «أرسله بالضياء، وقدمه في الاصطفاء.» (المصدر نفسه: ٤٣٨) وهناك كلام آخر نقله الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني من رسالة «التعظيم والمنة في تفسير لتؤمنن به ولتنصرنه» لتقى الدين السبكي: «في الآية من التنويه بالنبي(ص) وتعظيم قدره ما لا يخفى وفيه مع ذلك أنه على تقدير مجيئه في زمانهم يكون مرسلأ إليهم، فتكون نبوته ورسالته عامّة لجميع الخلق من زمن آدم إلى القيامة وتكون الأنبياء وأممهم كلهم من أمته.» (النبهاني، لاتا: ٤١) وبهذا الشأن يقول الدكتور الطهراني في تفسيره: «آية غرّة ترفع من شأن خاتم النبيين(ص) إلى أعلى القمم التي لا تساوى أو تساوى حيث تحمله - وهو آخر النبيين - المجيء إليهم كلهم برسالته القدسيّة.» (الصادق الطهراني، ١٣٦٣ش، ج: ٥، ٥٧)

ثم يواصل الشيخ النبهاني قوله «فإن النبوة وصف لا بد أن يكون الموصوف به موجوداً وإنما يكون بعد بلوغ أربعين سنة أيضاً فكيف يوصف به قبل وجوده وقبل

إرساله وإن صحّ ذلك فغيره كذلك. قلت: قد جاء أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد، فقد تكون الإشارة بقوله "كنت نبياً..." إلى روحه الشريفة أو إلى حقيقته. والحقائق تقصر عقولنا عن معرفتها وإنما يعلمها خالقها ومن أيده بنور إلهي، ثم إن تلك الحقائق يؤتى الله كل حقيقة منها ما يشاء في الوقت الذي يشاء، فحقيقة النبي (ص) قد تكون من قبل خلق آدم آتاه الله ذلك الوصف.» (النبهاني، لاتا: ٤٢)

يقول الدكتور الصادقي الطهراني في تفسيره: «وترى إذ تعنى زمناً واحداً جمع فيه النبيون لجمع واحد لأخذ ذلك الميثاق منهم، وقد يحتمل أن إذ تعنى زمن خلق كل من النبيين أن فطرهم الله على ذلك الميثاق. وقد يقال إن مصير الإقرار هنا هو مصير الإقرار بالتوحيد في آية الذرّ، إذن فكما فطر الله الناس على توحيد من خلقهم، كذلك فطر النبيين على الإيمان بمحمد(ص) ونصرته. فالروح الرسالية المحمدية محلقة على كل الأرواح الرسالية قبل خلقها في الجسد، وهي محلقة عليها بعد خلقها في الجسد وبعثها لرسالتها الحتمية.» (الصادقي الطهراني، ١٣٦٣ش، ج ٥: ٥٧ إلى ٦١) ومن ثمّ يستنتج أنّ لنبينا محمد(ص) مميزات ليست لسائر النبيين. فيقول: «لقد خُصّت الرسالة المحمدية بمميزات بين كافة الرسل وعلى حدّ قوله(ص): كنتُ نبياً و آدم بين الماء والطين. فكينونات الرسالة المحمدية أربع لا يشترك سائر الرسل إلا في أولها وهي الكينونة الرسالية في علم الله، دون الثلاثة الأخرى وهي كيان الإيمان به ونصرته بالتبشير قبل خلقه وبعثه، وكيان رسالته في الأرواح الرسالية كراس الزاوية، وكيان الإيمان به ونصرته في رجعتة.»

(المصدر نفسه: ٦٥)

وعلى هذا الأساس أصبحت هذه العقيدة بالحقيقة المحمدية كمحور أساسي في المدائح النبوية وفي هذا السياق كان الخاقاني ممن يعتقد بأن النبي(ص) قد خلق قبل خلق الكائنات، وكان نبياً قبل خلق كل شيء ومثال ذلك ما يلي:

برنامجه سيده صبح ازل هنوز      كاو بر سيه سييد ازل بود بيشوا

- قبل أن يطلع فجر الأزل كان فجر الكون يستضيء بنور النبي(ص).

وأيضا يقول:

ديباچه سراچه كل، خواجه رسل كز خدمتش، مراد مُهنا بر آورم  
- النبي مقدّمة خلق العالم، وهو سيد الرسل، والذي أفضى حاجتي المهنة بواسطة خدمته.

فنى فى الشطر الأول أن الشاعر يكرّر عقيدته بأن النبيّ بداية خلق العالم وأنه سيد الرسل، وقد تجلّى فيه كمال الخلق.

وفى أبيات أخرى يأتي بتعليلات وتشبيهات يؤكد بها على عقيدته:

بهينه سورت او بود و انبيا اجد مهينه معنى او بود و اصفيا اسما  
اگر ز بعد همه در وجودش آوردند قدوم آخر او بر کمال اوست گوا  
نه سورت از پس اجد همی شود مرقوم نه معنى از پس اسما همی شود پیدا  
نه روح را پس ترکیب صورت است نزول نه شمس را پس صبح کاذب است ضیا  
- كان النبي محمد(ص) هو الصورة المكتملة للرسل قبله، كما أن السورة هي الصورة المكتملة للحروف. والنبي هو المعنى والأنبياء هم الأسماء. فاكتمال الأسماء وتركيبها يؤدى إلى ظهور المعنى.

- فإذا خلق الله رسوله(ص) بعد غيره من الأنبياء، وبعثه بعد بعث غيره من الرسل فإنما هو شاهد على كماله.

- أليست السورة تكتمل بعد الحروف الأجدية؟ أليست المعاني تدخل حيز الوجود بعد تكوّن الألفاظ؟

- أليست الروح تهبط بعد تركيب الصورة؟ أليست الشمس تطلع بعد الفجر الكاذب؟ فنى فى هذه الأبيات أن الشاعر قد شبّه النبي(ص) بسورة، والأنبياء بحروف للسورة، وفى البيت الأخير شبّه النبي(ص) بالروح والشمس، والأنبياء بالجسم والصبح الكاذب من خلال استخدام الاستفهام الإنكار: أليست الروح تنزل قبل تكوين الجسم؟ وأن الشمس لا تطلع إلا بعد الفجر الكاذب. وفى موضع آخر يقول:

شاهنشاهی است احمد مرسل که ساخت حق تاج ازل کلاهش و درع ابد قبا

١. حاجة الشاعر المهنة هي أملة في زيارة الكعبة وقبر النبي(ص).

- نبينا أحمد ملكٌ جعل الله الأزلية تاجاً له، والأبدية رداءً له.  
فأزلية النبي مما يتطرق إليها المادحون وقد تحدثنا عنها بالتفصيل عند شرح آية الميثاق. وأما الأبدية فليس الغرض منها أن النبي كان أبدياً في الوجود لأن كل شيء هالك إلا وجهه. إذن يمكن تفسير غرض الشاعر من أبدية النبي بأنه يقصد منها أبدية دينه وسنته وكتابه كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩) واستخدام الشاعر كلمة "الدرع" يسوقنا إلى أن نستنبط بأن الأبدية كدرع تحفظ بالنبي (ص) ودينه من الأفول والزوال.  
ويقول في هذا البيت:

او مالک الرقاب دو گیتی و بردرش در کهتری مشجره آورده انبیا  
- هو مالک رقاب العالمين في الدنيا والعقبى، وجميع الأنبياء يقدمون إليه شجرة نسيهم في الفضل.

يشير هذا البيت إلى آية الميثاق التي تحدثنا عنها فيما سبق، فتقديم الأنبياء شجرتهم إلى النبي يعني أن الأنبياء كانوا يعرفونه ويفضّلونه على أنفسهم وتعاهدوا بنصره. وبناء على المعتقدات الصوفية فقد قالوا في تفسير النور المحمدي - وفيما يخص وصف النبي (ص) في القرآن الكريم نوراً وسراجاً منيراً بأن النبي (ص) ما كان له ظل، إذ هو كائن فوق البشر ومادته هي النور. وأما الخاقاني فلم يصرّح في أشعاره بهذه العقيدة ولكن هناك بيت يشير وبشكل غير مباشر إلى هذه العقيدة حيث يقول:

با سايه ركاب محمد عنان در آر تا طرّفوا زنان تو گردند اصفيا  
- كن في زمرة أصحاب الرسول و توسل إلى ظل أهدابه، حتى تنال مقاماً رفيعاً ليكون أصفياء الله في موكبك يفتحون عليك الطريق.  
فقد استخدم الشاعر في الشطر ظل أهداب النبي بدل ظل النبي، وهذه أمارة لبعض ما تقدم ذكره.

وفيما يخص علم النبي (ص) بالغيب فقد قال الخاقاني:  
هم عيب رابه عالم اشرار پرده پوش هم غيب را ز عالم اسرار ترجمان  
- كان النبي يستر عيوب الأشرار، ويبين الغيب من عالم الأسرار.

ويقول في تحفة العراقيين:

اي قابله نتائج غيب اي عاقله سراجة عيب

(الخاقاني ، ١٣٨٦ هـش: ١٧٩)

وقد اعتبر الشاعرُ النبيَّ (ص) عالماً بالغيب في البيتين السابقين خلافاً لمن ينفي نسبة علم النبيِّ بالغيب بينما تصرَّح الآية التالية علم الأنبياء بالغيب في حدود ما أراده الله: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ (الجن: ٢٧) أو كقول عيسى (ع) لبني إسرائيل: ﴿وَأَنْتُمْ كُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ (هود: ٦٥) ولم يدع الشاعر في هذين البيتين بأن النبي (ص) عالم بكل الأسرار الغيبية، بل النبي يفسر ما علمه الله من الأسرار الغيبية وأن القرآن ترجمان لهذه الأسرار.

#### ب) النبي غرض لخلق الكائنات

من مكونات الحقيقة المحمدية هو الاعتقاد بأن النبي هو الغرض الأول لله تعالى في خلق العالم اعتماداً على حديث قدسي وهو «لولاك لما خلقت الأفلاك» وقد رواه محدثو الفريقين.

وللخاقاني أبيات في أن النبي هو سبب خلق العالم وأن الله خلق العالم لأجله (ص):  
 اوست مختار خدا و چرخ و ارواح و حواس      زان گرفتند از وجودش منت بی منتها  
 هشت خلد و هفت چرخ و شش جهات      چار ارکان و سه ارواح و دو کون از یک خدا  
 (الخاقاني، ١٣٨٢ ش: ٤)

- النبي هو الذي اختاره الله، وكانت السماء والأرواح والحواس تعلق وجودها بوجود النبي وهكذا الجنات الثماني، والسموات السبع، والجهات الست، والحواس الخمس، والأركان الأربعة، والأرواح الثلاث، والعالمان، كلها لله الواحد الأحد.  
 كما يلاحظ أن الشاعر يعتقد بأن وجود الكائنات رهين لوجود النبي (ص) والخلق يعود إلى الله الواحد الأحد.

يجدر بالإشارة إلى أن الخاقاني يحسن استخدام الأعداد حيث استخدم الأعداد معكوسة من الثماني إلى الواحد وهذا ما يسمى بصناعة صياغة الأعداد.

وفي موضع آخر يعتبر الشاعر النبيّ مالكا لهذا العالم وكما في أمورها حيث يقول:  
داراوداوراوست جهان را، من از جهان فرياد پيش داور و دارا برآورم  
(المصدر نفسه: ٢٤٧)

- النبيّ مالک العالم وحکماً فيه وأنا أتظلم إليه من العالمين.

وفي بيت آخر يقول بأن هذا العالم لا يخلق إلا لأن فيه النبيّ:

يزدان که سرای شش جهت ساخت جز بهر نشست تو نپرداخت

(الخواقانی، ١٣٨٦ ش: ١٦٩)

- الله الذي خلق هذه الدار ذات الجهات الست، ما خلقها إلا لجلوسك واستقرارك

فيها.

### ج) تفضيل النبي(ص) على الأنبياء و على جميع الكائنات

تفضيل المدوح على غيره هو أحد الأغراض الرئيسة من المدح وهكذا الأمر بالنسبة إلى شخصية النبي(ص) في نظرة الشاعر. ومن هذا المنطلق واستشهاداً بالآيات الشريفة: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَ...﴾ (البقرة: ٢٥٣) و﴿... وَكَلَّمْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٨٦) و﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ (الإسراء: ٥٥) وأما نبينا محمد(ص) فقد اختصه الله بميزات لا يختص بها أحداً من أنبيائه منها ما أشار إليه صاحب تفسير الفرقان تحت آية التفضيل (البقرة: ٢٥٣) (الصادق الطهراني، ١٣٦٣ ش، ج ٤: ٤٤ إلى ٤٩):

«... ألا وأول العابدين ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ (الزخرف: ٨١) إذا فكل المرسلين هم في المرتبة التالية لأول العابدين. وهو رحمة للعالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠) ولا نجد هذه الرحمة العالمية في الذكر الحكيم لمن سواه من المرسلين وهو رسول إلى النبيين أجمعين، وهو أظهر المتطهرين ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب: ٣٣) وهو خاتم النبيين، لا يُصدّق

نبي إلا بختمه وتصديقه كما لا يُبعث نبي ولا رسول بعده ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (الأحزاب: ٤٠) وأن معجزته الخالدة هذه، تفوق معجزاتهم في كمها وكيفها، فإنها دائمة دوام شرعته إلى يوم القيامة غير فاشل في حجتها ولا منسوخة، بل تزداد بهوراً وظهوراً على تقدّم العقل والعلم. ويعبّر الله عنه (ص) بين الشهود الرساليين بشهيد الشهداء وبكتابه «تبياناً لكل شيء»، ﴿يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ، وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩) ويقسم الله بعمر بحيث لا يقسم بينهم إلا بعمره (ص) ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الحجر: ٧٢)

هذه بعض الأدلة القرآنية في تفضيل النبي (ص) على جميع الأنبياء (للمزيد راجع: النبهازي: ٣٥ إلى ٦٠ والصادق الطهراني، ج ٤: ٤٤ إلى ٤٩) فاستفاد منها شعراء المديح النبوي في أشعارهم بحيث بيّنوا تفضيل النبي (ص) على غيره بطريقتين، تارة بصورة كليّة يفضّلون النبي من خلاها على الخلق وعلى الأنبياء دون أن يذكروا أسماءهم، وتارة أخرى بذكر أسمائهم.

والخاقاني يعتقد بأفضلية النبيّ فضلّه على الخلق حيث يقول:

تا مادر جان رحم گشادهست بهتر خلقی ز تو نزاده است

(المصدر نفسه: ١٧٠)

- منذ أن بدأت أمّ العالم بولادة الكائنات لم تلد مولوداً أفضل منك.

وأما عن تفضيل النبيّ على الأنبياء يقول الخاقاني وهو يذكر النبيّ عيسى (ع):

باج ستان ملوک ، تاج ده انبیا کز در او یافت عقل خط امان از عقاب

جمله رسل بردرش مفلس طالب زکات او شده تاج رسل تاجر صاحب نصاب

عطسه او آدم است عطسه آدم مسیح اینت خلف کز شرف عطسه او بود باب

(الخاقاني، ١٣٨٢ ش: ٤٤)

- الملوك رعية الرسول فيعطونه الجبايات، وهو يهبهم الأنبياء تاج النبوة، ومن بابه

هو يتوقّى العقل من العقاب.

- جميع الرسل يفتقرون إلى زكاته وهباته وهو تاج الرسل وصاحب الزكاة.

- إن آدم (ع) مولود محمد (ص) و عيسى (ع) مولود آدم (ع) وهما ثمرة نبوته وأن يكون الأب (آدم أبو البشر) ولد ولده يدل على شرف الولد.

في البيت الثالث «يعتبر الخاقاني المسيح بمنزلة عطسة (مولود) آدم ويعدّ آدم عطسة النبي ويقول فيه مادحاً: طوبى للابن الرشيد الذي أبصر أبوه النور من أجله، وهو كريم جليل يعرف الجميع أباه بواسطته.» (كزازی، ١٣٨٠ ش: ٩٧)  
ويقول أيضاً:

آدم به گاهواره او بوده شیر خوار ادریس هم به مکتب او بوده درس خوان  
(الخاقاني، ١٣٨٢ ش: ٣١٠)

- كان آدم (ع) رضيعاً بمهد هو إدریس (ع) تلميذ مدرسته.

وفي مثنوی تحفة العراقيين يأتي بمعان قريبة من هذه المعاني:

آدم ز خزان جرم رخ زرد چون لاله ز ژاله در خوی سرد  
از تو اثر ربیع دیده بر جرم خودت شفیع دیده  
ادریس به درس، چاکر تو تاریخ شناس اختر تو

(الخاقاني، ١٣٨٦ ش: ١٦٩)

- كان آدم مصفر الوجه في خريف معصيته، وكان خجلاً على ذنبه.

- فرأى منك الربيع ووجدك شفيعاً لذنبه.

- وكان إدریس خادماً ببابك متعلماً بمدرستك ومنجماً في سمائك.

ويقول أيضاً:

بر دوحه فطرت جهان دار آدم شكفه ست و میوه مختار  
احمد پس آدم است شاید میوه ز پس شكوفه آید  
أب کیست؟ خلیل و جد که؟ آدم او بهتر ازین و بل از آن هم  
بعد از همه آمده ست ظاهر سورت پس ابجد آمد آخر

(المصدر نفسه: ١٠٨)

- كان آدم زهرة شجرة الخلق، والنبي المختار ثمرتها.

- ينبغي أن يأتي النبي بعد آدم، لأن الثمرة تأتي بعد الزهرة.

- من هو أبوه؟ هو الخليل (ع) ومن هو جدّه؟ هو آدم (ع) والنبي (ص) أفضل من أبيه وجدّه.

- لقد جاء النبي بعد جميع الأنبياء، إلا أن هذا دليل على كماله لأن السورة تكتمل بعد الحروف.

فيعلل الشاعر في هذه الأبيات تأخر النبي في الوجود بعد الأنبياء بتعليقات منطقية لإثبات كماله وأفضليته على سائر الأنبياء. ففي البيت الأول يشبّه العالم بشجرة كان آدم زهرتها و النبي ثمرتها، والثمرة هي الصورة المكتملة للزهرة. هذا وفي أبيات أخرى من المقالة الخامسة من مشنوى تحفة العراقيين يذكر نبياً من الأنبياء ويذكر له ميزة خاصة له، ثم يقول بأن هذه الميزة من عنايات النبي محمد (ص). كما في قوله:

نوح از توبه بحر باز خورده	ملاحى زورق تو كورده
ابراهيم ز تو مُهر برده	تا آتش او فرو فسرده
خضر از تو شراب در كشيده	الياس به جرعه اى رسيده
داود مُغنسى در تو	جم ، صاحب جيش عسگر تو
يعقوب ضرير غم رسيده	كحالى ديده از تو ديده
يوسف ز تو كرده ملك تحصيل	در صدر تو خوانده علم تاويل
يحيى ز در تو عصمت اندوز	در مكتب تو فرايض آموز
عيسى ز حواريان خاصت	پرورده لطف خوان خاصت

(المصدر نفسه: ١٧٣)

- نجا نوح من الطوفان بواسطتك إذ هو تتلمذ عليك وكان ربّان سفينتك.

- استشفعك إبراهيم (ع) فصارت النار عليه برداً او سلاماً.

- شرب خضر (ع) ماء الحياة بفضلك، كما إن إلياس تجرّع من معينك.

- كان داود يتغنى ببابك وكان سليمان قائد جيشك.

- واستعاد يعقوب (ع) بصره بعد أن أصابه العمى وألوان الهموم.

- تولى يوسف (ع) الحكم بواسطتك ، و تعلم منك علم التأويل.

- اكتسب يحيى (ع) بك العصمة والنبوة، وتعلم بحضرتك الفرائض.

- وكان عيسى(ع) من حواربيك وريبب مائدتك.  
لو تُقارَن هذه الآيات بالآيات القرآنية التي تفضّل الأنبياء على الناس، أو تفضل بعضهم على بعض، أو لو ننظر إلى الأدلة التي ذكرناها في تفضيل النبي(ص) على الآخرين لوجدنا أنه لا مخالفة ولا تعارض بينها وبين الآيات. فتفضيل الشاعر النبي(ص) على الأنبياء فكرة منبعثة من القرآن الكريم وليس بفكرة صوفية مجتة كما يظن البعض.

### النتيجة

الحقيقة المحمدية من القضايا التي طرحت في دائرة الفكر الصوفي والعرفان الإسلامي فانتشرت في المجتمع إلى أن شملت دائرة الشعر والأدب بحيث تناولها عدد من الشعراء ومنهم الخاقاني الشرواني. تنبثق الحقيقة المحمدية من عدد من الأحاديث التي رواها المحدثون عن النبي(ص) حيث قال "كنت نبياً وآدم بين الماء والطين". قد احتلت هذه الحقيقة مساحة كبيرة من المدائح النبوية وهذه الحقيقة هي العنصر الأساسي في المدائح النبوية في شعر الخاقاني الشرواني. تتكون الحقيقة المحمدية من عدة عناصر منها: حقيقة النبي النورية بحيث يعتبر النبي(ص) أول الكائنات ويستمد كل كائن وجوده من نوره وذلك بالاعتماد على الآيات القرآنية كآية الميثاق على سبيل المثال ومنها: تفضيل النبي(ص) على الأنبياء وعلى جميع الكائنات ونبوته قبل نبوة سائر الأنبياء. على هذا الأساس فالنبي(ص) تجسّد عند الخاقاني في صورتين: الأولى هي التي تتعلق بمرحلة ما قبل ظهوره العنصري الذي كان نوره أول نور فاستضاء الأنبياء بنوره، والصورة الثانية هي التي تتعلق بما بعد خلقه وبعثته نبياً وما يرتبط برسالته. وفيما يتعلق بأفضلية النبي وأنه غرض خلق العالم يلاحظ أن الخاقاني قد تناول هذا الموضوع في العديد من أبياته الشعرية وبصرّح بذلك، علماً أن الخاقاني تمكن وبكل براعة أن يبين الجوانب الثلاثة لهذه الحقيقة معتمداً على الآيات القرآنية التي نزلت بهذا الشأن.

### المصادر والمراجع

القرآن الكريم

ابن أبي طالب، الإمام علي. ١٣٧٩ش. نهج البلاغة. باهتمام محمد دشتي. ط ١. طهران: نشر رامين.

- أحمدى، عبد الحميد. ١٣٨٨ش. المديح النبوية في الأدبين العربي والفارسي. أطروحة الدكتوراه. كلية الآداب الفارسية واللغات الأجنبية. طهران: جامعة العلامة الطباطبائي.
- استعلامى، محمد. ١٣٨٧ش. نقد وشرح قصائد الخاقاني. طهران: نشر زوار.
- برزگر خالقي، محمدرضا. ١٣٩٠ش. شرح ديوان خاقاني. المجلد ١. ط ١. طهران: نشر زوار.
- خاقاني شرواني، افضل الدين بديل ابن علي. ١٣٨٢ش. ديوان. تصحيح: ضياء الدين سجادي. ط ٧. طهران: نشر زوار.
- خاقاني شرواني، افضل الدين بديل ابن علي. ١٣٨٦ش. مثنوى تحفة العراقيين. تصحيح وتعليق: يوسف عالي عباس آباد. ط ١. طهران: نشر سخن.
- الرازي، الإمام فخر الدين محمد. ١٤٠١ق. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير). ج ١١. ط ١. بيروت: دار الفكر.
- سجادي، ضياء الدين. ١٣٧٠ش. كزیده أشعار خاقاني شرواني. ط ٤. طهران: مطبعة سپهر.
- الصادقي الطهراني، محمد. ١٣٦٣ش. الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن والسنة. ط ١. طهران: منشورات الثقافة الإسلامية.
- صفا، ذبيح الله. ١٣٧٢ش. تاريخ ادبيات ايران. طهران: دار ققنوس للنشر.
- الطباطبائي، محمد حسين. ١٩٧١م. الميزان في تفسير القرآن. ط ٣. بيروت: مؤسسه الأعلمی للمطبوعات.
- الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير. ١٤١٢ق. جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبري). المجلد ٤. بيروت: دار المعرفة.
- كاشي، عبد الرزاق. ١٣٧٦ش. اصطلاحات الصوفية. الترجمة والشرح الفارسي لمحمد علي مودود لاري. طهران: منظمة الإعلام الإسلامي.
- كزازی، ميرجلال الدين. ١٣٨٠ش. گزارش دشواری های دیوان خاقانی. ط ٢. طهران: نشر مرکزی.
- المازندرانی، ابن شهر آشوب. ١٣٧٦ق. المناقب. ج ١. ط ١. النجف: مطبعة الحيدري.
- مبارك، زكي. ٢٠١٢م. التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق. ج ١. ط ١. القاهرة: مؤسسة هندواي.
- المجلسي، محمد باقر. ١٩٨٣م. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة. ط ٢. بيروت: دار إحياء التراث العربي ودار الوفاء.
- النبهاني، يوسف بن اسماعيل. لاتا. حجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين. حلب: مكتبة دار الفلاح.